الرجل الذي هزم الاستعمار مرتين

الشيخ جعفر المهاجر

اسمحوا لي أن أبدأ كلامي بنقل شهادة أعتقد أنها بمؤداها وبمؤديها تُغنيني وتُغنيكم عن قول الكثير. ولولا أن هذه لاشهادة في حاجة إلى تفصيل لاستغنيت وأغنيتكم بها عن كثير مما وعيته مما يدخل تحت عنوان مشاركتي في مؤتمركم الكريم.

كان ذلك صيف 1964. يوم زار بعلبك الشهيد الثالث السيد محمد باقر الصدر، رضوان الله تعالى عليه. وتفضّل بتفقدي إعلاماً بقدومه. تاركاً لي رسالة مع من استقبله لغيابي المؤقت، إنه متوجه إلى منتزه رأس العين. وسارعت إلى المكان لأجد أستاذي جالساً وحيداً مُطرق الرأس بجانب الشلال. قال: أنا قادم على التو من زيارة جدّك، وما أزال تحت تأثير ما رأيت وما سمعت. رأيت رجلاً في وجهه مزيج من تعب وطمأنينة. وكأنه قضى عمره يتسلّق جبلاً صعب المرتقى. وها هو جالس على قمّة ذلك الجبل، ينتظر الجائزة من ربه. وهو يعلم علم اليقين أنها ستكون له إذ يلقاه. وتابع السيد رحمات الله عليه، يقول لقد كانت جلستي القصيرة إليه تجربة لن أنساها.

لست أكتم عنكم أنني تأثرت جداً بما سمعت. فهو أولاً كلام لا يمكن لغير مثل السيد الصدر أن يقوله. ثم إن قائله من عائلة بل عائلتين أنجبتا العديد من أفذاذ العلماء فضلاً عن أنه عرف خلال حياته في (النجف الأشرف) أجل علمائها. ومثله لا يمكن أن يُفاجأ بشيء من شؤون هؤلاء المقدّسين. وعندما أدليت للسيد بهذه الملاحظة قال: نعم، ولكن من رأيته اليوم مختلف تماماً.

كان ذلك قبل وفاة الشيخ بأشهر معدودات، وقبل أن ينال السيد درجة الشهادة سنوات معدودات. والغريب أنني عندما جلست إلى الجد رحمات الله تعالى عليه في مساء اليوم نفسه قال: لقد زارنا اليوم أستاذك سيكون لهذا الرجل شأن عظيم. لقد كان ذلك اللقاء على قصره لحظة من لحظات الدهر. عنوانها المؤمن ينظر بنور الله. تعارف فيه علمان، وقرأ كل منهما الآخر بلحظات كأنما يقرأ في كتاب. ولا شك أنهما الآن قد تعارفا على أحسن ما يكون (على سرر متقابلين. لا يمسهم فيها نصب وما هم بمخرجين).

ذلك الجبل الصعب وفقاً للصورة الرائعة والملهمة التي رسمها لنا السيد الصدر، ظل الشيخ يرتقيه ويجالده زهاء ستين سنة من عمره المديد. والحقيقة أن العارف بسيرة الشيخ من جهة وبسمات الفترة التاريخية التي عمل فيها من الجهة الأخرى يرى بكل وضوح أن المعارك الكبرى التي خاضها وانتصر فيها لم تكن مع الجبل الصعب المرتقى بل أيضاً وأيضاً مع من أقام ذلك الجبل وبناه ليُمثل مصالحه في المنطقة. ولذلك فإنه آلى أن يحميه بكل ما ملكته يداه.

دخل الشيخ ميدان العمل الفعلي بُعيد نهاية الحرب العالمية الأولى. ومن المعلوم أن من أسوأ ما تمخّضت عنه هذه الحرب بالنسبة إلينا أن عالم الإسلام الشاسع غدا كله تحت الأسر. بنهاية تلك الحرب لم تعد ذرة تراب إسلامية حرة. واستلقى ذلك الجسد الضخم عاجزاً يحيط به المنتصرون وبأيديهم الشفار المسنونة. يتبارون في تقطيعه والاستيلاء على أشلائه. تنفيذاً للاتفاقات السرية التي عقدوها بين بعضهم البعض دون أن يُبدوا أي اكتراث بالوعود والعهود التي قطعوها للشعوب.

اكتشف الشيخ العالمية في وقت مبكّر. وحين كان الناس في دمشق وبيروت يهزجون للاستقلال والحرية مستبشرين متفائلين.

كان هو يعلن خيبة أمله وتشاؤمه. وفي مذكراته التي كتبها بقلمه بعد أن وصف أعماله في دعم (حكومة الشرق العربي) وملكها فيصل بن الحسين، الذي عُرف فيما بعد بالأول صرّح بهواجسه قائلاً: (وتبيّنتُ الفتن المقبلة). ثم رأيناه يشد الرحال عائداً إلى مهوى قلبه النجف الأشرف التي غادرها منذ أربع سنوات بعد أن قضى فيها خمس سنوات. ونحن الآن من موقعنا العالي في الزمان بوسعنا أن نقول أن مقاديره وحسن التوفيق كانت تقود خطاه إلى حيث سيخوض معركته الكبرى والأسطورية والتاريخية مع عرض من أعراض الوضع الاستعماري المستجد على المنطقة. كان في الحقيقة من أخطر ما واجهته في كل تاريخها الحديث.

كان ذلك في الجنوب، جنوب العراق الذي حاضرته مدينة (العمارة). وكان العراق قد أصبح على التو تحت الانتداب الانكليزي تنفيذاً لمقررات مؤتمر الصلح الذي انعقد في باريس، وأوكل إليه أن يغطي ويمنح الشرعية للقسمة الاستعمارية. وفي هذا السبيل ابتدع هرطقة الانتداب أو (المندة) على الكلمة التي تلقّفها ونشرها الملك فيصل الأول الذي صار الآن ملكاً على العراق. بعد أن فشل في تثبيت ملكه القصير العمر على سورية.

لكن المستعمرين الانكليز الجدد كانوا يدركون جيداً أن سلطانهم على البلد لن يكون بقدر ما يرغبون، لأنه سلطان دون جذور. لما هناك من حاجز يفصل بين أي سلطة أجنبية غير مسلمة على بلد مسلم.

لذلك فيما نرجّح، وفي سبيل كسر هذا الحاجز المتين فإنه ما ان استقرت السلطة الانكليزية على العراق وتحديداً في السنة 1924، حتى نزلت مدينة (العمارة) هيئة كبيرة من المبشرين البروستانت. ونظن أن الاختيار وقع على هذه المنطقة بالذات لما كانت عليه من تخلف بالغ وفقر وجهل لا يوصف، حتى بالقياس إلى بقية المناطق العراقية الخارجة من الحكم العثماني وظروف الحرب. وربما أخذ الانكليز في الاعتبار أيضاً أن المنطقة تُطل على أكبر تجمع إسلامي شيعي في العالم، إيران وشعبها ولعلهم فكرو في أنهم إذا نجحوا في تنصير المنطقة أي بالمعنى السياسي أن تكون رأس جسد ثابت فسيكون في وسعهم الانسياح باتجاه المنطقة المتاخمة من إيران. لما هناك من صلات متينة دينية واجتماعية وعائلية بين ضفتي شط العرب. ومثل هذا التفكير غير مستبعد على الدهاء الاستعماري والانكليزي.

مهما يكن فقد بنى المبشّرون مستشفى ضخماً لعله أكبر مستشفى بُني في العراق حتى تاريخه. وقد رأيت أطلاله سنة 1958، بالإضافة إلى عدد من المدارس ومطبعة وأصدر مجلة ونشروا عدداً كبيراً من الكتيبات في موضوعات تبشيرية. وكذلك انتشر رجالهم المدربون في أوساط الناس في القرى والدساكر الفقيرة. وكانوا حيثما حلوا تصحبهم المعونات السخية من أغذية وكساء. فضلاً عن معالجة المرضى مجاناً في مستشفاهم. وهكذا في خلال سنوات قليلة من العمل الدائب على هذا النحو، اقترب المبشرون كثيراً من هدفهم النهائي. ووصل الأمر بهم إلى حد أنه خلال أحد الاجتماعات الحاشدةالتي كانوا ينظمونها، وقف كبيرهم ومزّق القرآن علناً ونثر أوراقه. وكان ذلك

بمثابة إعلان صارخ بانتصارهم النهائي. ولكنه كان في الوقت نفسه نذيراً لرجالات النجف الأشرف بأن الأمور قد وصلت إلى الحد الذي لا يمكن السكوت عليه، حتى في ظل الحرب الانكليزية.

في السنة 1927 أوكل مرجع النجف الأكبر في زمان السيد أبو الحسن الأصفهاني رضوان الله عليه إلى الشيخ أمر التصدي للخطر الداهم. وقد كتب الشيخ في إحدى تسجيلاته لمحفوظاته لدينا يقول إن السيد يعني الأصفهاني نثر كنانته وعجم سهامها فرآني أصلبها عوداً، فرماهم بي.

في العام نفسه دخل الشيخ مدينة (العمارة) وحيداً. أمامه تلك المهمة شبه المستحيلة مقارعة تلك الحملة بعد أن توطدت وانغرست عميقاً في شعب الجنوب. فضلاً عن أنها محمية منقبل السلطة الانكليزية المالكة الحقيقية على العراق. وبعد أربع سنوات من العمل سُجّل صحيفة الشيخ وعلى صفحات التاريخ أنه أوقع الهزيمة الكاملة بالغزاة. فأقلعوا نهائياً تاركين مؤسساتهم الضخمة خاوية على عروشها كأن لم تغنُ بالأمس. وذلك درس حقيق بنا أن نقرأه ونستعيده كل يوم.

من الصعب أن أقص عليكم من على منبر قصة تلك الأيام. بما فيها من تفصيلات، من كد وصبر وتفاني وحكمة وحسن تدبير وسياسة وفي المقابل التخاذل والخذلان والتهديد والوعيد. ولكن من المفيد أن ننظّ ما كان يجري في مدينة العمارة بغزو مماثل كان ميدانه جنوب السودان. خصوصاً وأن الحملة التبشيرية التي غزت العراق هي نفسها. ولكنهذه لم يُقيّض لها سهم من سهام الله يردذها. وأننا لنعلم وتعلمون بشكل كاف ستترتب على ذلك المخطط الرهيب. ومن المؤكدأن ما بدأه أولئك الغزاة لو أنه استمر وتثبّت لكان وجه العراق ، العراق على الأقل مختلفاً تماماً اليوم.

في أواخر السنة 1930 زار الملك فيصل الأول مدينة (العمارة) وذلك في عداد جولة قام بها إلى كافةأنحاء مملكته الجديدة. وأروي لكم عن شاهد عيان أن الملك تجنّب لمدة زيارة الجنوب خصوصاً ربما تحاشياً للحرج الناشئ من دخول منطقة لقي فيها الانكليز، أسياد البلد الحقيقيون ما لقوا. وأيضاً تحاشياً للقاء الشيخ. على الرغم من أنه حتماً لم يكن قد نسي مواقف الشيخ الإيجابية منه، قبل سنوات قليلة أيام كان أي الملك حاملاً للواء الحرية والاستقلال في سورية. يؤيد ذلك أن الملك قال علناً في (العمارة): (أنا ملك العراق عدا الجنوب. فالشيخ حبيب هو ملك الجنوب) وهذا كلام مبطن وذو حدين. فهو من جهة يتملّق الناس الذين محضوا الشيخ الولاء، بعد أن أنقذهم من الهوة التي كانوا ينحدروا إليها. ولكنه من الجهة الأخرى يشي بوضوح عن ضيق الملك من تصاعد نفوذ هذا الرجل (الغريب).

هذه الزيارة وما جرى فيها مما نعلمه ومما لا نعلمه كانت حداً فاصلاً في هذه المرحلة من سيرة الشيخ. فعلى التو بدأت المشاكل تُفتعل من قبل السلطةبحيث تجعل بقاءه محفوفاً بالمكاره. من ذلك إشاعات تطير بخطط يجري إعدادها لاغتياله. إلى إغراء بعض زعماء العشائر المحلية المتصلين بالسلطة بوصفهم أعضاء في مجلس الأعيان باستعمال كل ما لديهم من نفوذ لإقلاق الشيخ. كل هذا فضلاً عن أنه غدا معتلّ الصحة بسبب الإرهاق أولاً، ثم بشسبب الإقامة لسنوات في بيئة معروفة بانتشار عدة أمراض متوطنة فيها. وقد عانى خصوصاً من مرض (التراخوما) الذي كاد أن يذهب ببصره. ولكن في مقدمة كل اعتبار كان جندي الإسلام يعزف وحيداً أنه انتصر في هذه المعركة. ولا

بأس بأن يتحول عنها إلى ساحة جديدة. وهكذا في السنة 1931 نزل مدينة (بعلبك) ومنذ هذا التاريخ وخلال الثلاث أو الأربع وثلاثين السنة التالية من عمره أي حتى وفاته سنة 1965 ارتبطت سيرته وأعماله بالمنطقة الممتدة من غرب سهل البقاع حتى حلب والساحل السوري.

واجه الشيخ في هذه المنطقة الشاسعة إرثاً ثقيلاً من التخلّف بكل معانيه، يستشري بين أبنائه وأخوانه الذين يشكلون ثلث سكانها على وجه التقريب. يعود إلى قرون وقرون من الاضطهاد والإهمال والتفرقة والتمييز. ومرة ثانية نقول أنه من الصعب أن أقص عليكم نم على منبر قصة أعماله في مواجهة ذلك الإرث الثقيل والبغيض. ولكن أرجو أن تسمحوا لي بأنأبسط قليلاص في قصة انتصاره التاريخي الثاني الذي كان ميدانه هذه المرة في سورية.

الوجه الآخر للقصة، بالإضافة إلى بطلها هو طبعاً موضوعها أعني بكلامه الجماعة التي كانت تقيم آنذاك في أطراف اللاذقية وحمص وحماة المعروف باسم العلويين. وما منا من لا يتشرّف ويكبر بالنسبة إلى علي عليه السلام. من حيث إنه عَبَدَ الله تعالى حق عبادته. ولكن لا بد لنا من أن نقف عند الظروف والملابسات التي أُطلق فيها هذا الاسم بالذات عليهم، لما لذلك من علاقة بما نحن فيه.

والحقيقة أن هذه الجماعة الكبيرة العدد المنتشرة من شمال لبنان حتى ألبانيا، هم مسلمون على خط أهل البيت عليهم السلام. لثيت في تاريخها الطويل من صنوف الظلم والاضطهاد والامتهان ما يعجز عنه الوصف. ففشا بين أبنائها الفقر والجهل. وعاشوا في قراهم البائسة في عزلة محكمة. تحيط بهم صنوف التقولات الكائبة التي تخرج بهم عن حوبة الإسلام. وعندما جاء الاستعمار الفرنسي عمل على أن يستفيد من الوضع النفسي لهؤلاء لخدمة مشروعه التقسيمي للمنطقة. ولذلك فإنه ما إن احتلت الجيوش الفرنسية غرب سورية حتى ألّفوا حكومات مستقلة عن بعضها البعض. منها واحدة في (اللاذقية) سُميت حكومة بلاد العلويين. وذلك مقدمة لإنشاء دولة تضم الأقضية التي يشكلون أكثرية بين سكانها. والجدير بالذكر أن الفرنسيين هم الذين ابتدعوا لهم هذا الاسم الذي ما يزالون يُعرفون به حتى اليوم، ابتغاء تمييزهم عن بقية المسلمين. وإمعاناً في التمييز وفي سبيل تعزيز التقولات الشائعة عنهم، أغروا صنيعتهم سليمان المرشد بادعاء الربوبية. وزودوه بما ساعده على خداع السذّج والبسطاء من الناس بالسير وراءه.

التفت الشيخ إلى وضع هذه الجماعة خلال احدى جولاته في محافظة (حماة). لكنه وجد أنه عاجز عن عمل شيء من أجلهم خشية ممانعة السلطة الفرنسية. وانتظر حتى جلا الفرنسيون عن سورية وفازت بالاستقلال. وقد ذكر ذلك في بعض تسجيلاته.

في أواخر الأربعينيات بدأ جولاته على مناطقهم في محافظات حمص وحماة واللاذقية. وحيثما حل كان يدعوهم إلى رص الصفوف ويحثهم على رفع الصوت عالياً مطالبين بحقوقهم كمواطنين. والجدير بالذكر أن الشيخ بحسّه المميز كان يشعر بطريقة ما أنه بذلك كلن يقوم بعمل تاريخي. بديل أنه دأب على أن يسجّل أعماله ولقاءاته في اللاذقية وقراها في كتابه المتسلسل (الإسلام في معارفه وفنونه) تحت عنوان (للتاريخ). وحقاً لقد كانت تلك أياماً تاريخية. أثبتت مقولة أن لا نهضة دون عدالة اجتماعية ودون ضمان الحقوق الإنسانية لجميع المواطنين دون تمييز.

استمر الشيخ في مساعيه هذه السنوات منتقلاً من قرية إلى قرية. وقد عمل على بناء مدرسة في قرية (الدريكيش) وعدة مساجد في قرى المنطقة. منها مسجد في (اللاذقية) ما يزال معروفاً باسم بانيه حتى اليوم. ومن أجلهم ألّف كتابة المعروف (سبيل المؤمنين) الذي وزّع عليهم بالآلاف مجاناً.
وكان من حصاد تلك الأعمال أن تألفت في (اللاذقية) جمعية حملت اسم (الجمعية الخيرية الجعفرية) برأسة الشريف عبدالله الفضل وعضوية الشيخ عيد الخيّر، والشيخ عبد اللطيف مرهج والشيخ عبد الهادي حيدر والشيخ محمود الخطيب والشيخ حسين ساعود. وللتاريخ أيضاً أُول كانت هذه الجمعية أول تنظيم ضم مشايخ الطائفة. وقد قامت بأعمال جليلة بعضها تاريخي على صعيد الاتصال بالدولة واستصدار قرارات هامة منها ما يتعلق بتنظيم أمور الطائفة ومنها ما يتعلق بتصحيح صورتها ورفع ما نالها من تشويه فيما سبق. ومن يريد التوسع في بحث هذه الأعمال التاريخية التي اكتفينا بذكر إشارة سريعة إليها عليه أن يراجع كتاب (الإسلام) في أجزائه المختلفة. فهو يحتوي على وثائق في غاية الأهمية. بعضها أغلفنا حتى الإشارة إليها خوف الإطالة.

أود أن أختم كلمتي إلى مؤتمركم الكريم بالقول إن من تجتمعون اليوم لتكريمه كان رجل المهمات الجليلة والإنجازات التاريخية. وما ذكرناه له ليس إلا قليلاً من كثير وغيضاً من فيض.

إن المغزى الأساسي الذي نستخرجه اليوم من السيرة الحافلة للشيخ حبيب رضوان الله عليه هو أن الرجال الرجال هم الذين يصنعون التاريخ.

بصرف النظر عن الظروف الصعبة والإمكانات الضئيلة. هذا رجل الاستعمار بمفرده مرتين. ولم يكن سلاحه سوى التفاني والإخلاص المطلقين. أعطى كل ما عنده ولم يأخذ لنفسه شيئاً. عاش مع الناس في بيوتهم وأمضى الأيام والليالي متنقلاً من قرية إلى قرية ومن بلدة إلى بلدة ليُسمع كلمة الله محارباً التخلّف والظلم بكل أشكاله. وفي هذا كله درس لنا، علينا أن نُقيّد قراءته كل يوم.